حقوق الإنسان فى الإسلام

obeikan.com

obeikan.com

حقوق الإنسان فى الإسلام [٢٣]

حرية ومساواة :

احتلت حقوق الإنسان منذ الثورة الفرنسية مكان الصدارة فى كل منشور عقائدى ، وتحلى كل مذهبى بالدعوة إلى المحافظة عليها ، ومحاربة كل من يعتدى عليها فى أى مكان وتحت أى نظام من النظم السائدة فى المجتمعات البشرية ، حتى صارت الآلة التى يضرب على وترها كل من يريد تأييداً جماهيرياً ، وأغنية يرددها كل أنصار كل مذهب ، حتى ولو طفحت تصرفات أتباعه بما يتنافى مع أدنى المبادئ التى تحافظ على حقوق الإنسان ، وتؤمّن له حريته ، وما ذاك إلا لأن أغنية حقوق الإنسان أصبحت من النغمات التى تجد قبولاً لدى البائسين والمحرومين ، ويسعى المضطهدون فى كل مكان إلى مناشدة أصحاب الضمائر الحية لبذل كل ما فى وسعهم لتحويل كلماتها إلى حقائق ، وتجسيم نغماتها فى المجتمع البشرى ، كى تختفى صور الظلم والاضطهاد ، وتنمحى مظاهر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ورغم كل هذه الضجة الإعلامية التى تتخذ حقوق الإنسان مادة لها ، فلا زالت صور البؤس والشقاء الآدمى تغطى معظم مناطق الكرة الأرضية ، بل لازال من اشتهروا بالدعوة إليها يأتون من الأعمال ما يناقضها فى أماكن عديدة ، ينقضون أبسط مبادئها فى أقطار شتى ، حتى ضاعت ثقة الإنسان بفاعلية المؤسسات التى كرست جهودها فى هذا الميدان ، ورصدت الأموال الطائلة تحت بند العمل على محاربة ظواهر ضياع الكرامة الإنسانية .

فلو أدرك المهتمون بهذا الجانب ما قرره الإسلام فى هذا المجال منذ أربعة عشر قرنا ، فاهتموا بإبرازه على الساحة الدولية ، والأقاليم ، لظهرت آثاره بشكل أكثر وضوحاً مما يمارسه الداعون إلى هذه الحقوق اليوم على أساس مذهبى ، أو عرقى ، أو إقليمى ، ولعمقت جذوره فى ضمير المجتمع ، بحيث لا يقدر على محوها الطغاة والمتكبرون ، مهما كثر أنصارهم ، وقوى عتادهم ، لأن كل ما

---

[٢٣] نشر هذا المقال مع إضافات فى كتابنا : "الإسلام دين ودنيا "

يرتكز على طبيعة الإنسان ، ويستند إلى مصدر إلهى ، تكون فرصته فى سرعة الانتشار أكبر من غيره ، وطبيعته فى الدوام والاستقرار أكثر صلابة مما يقوم على رأى بشرى ، أو يصدر من اتجاه إنسانى .

فقد بين الإسلام أن الله خلق الإنسان ، ومنحه الحرية فى سلوكه وتصرفاته ، فحرىّ بهذا المخلوق – بناءً على هذا العطاء الإلهى – :

أن يكون حرا فى التعبير عن أفكاره ، وفى اعتناق ما يراه صالحا لنفسه ومجتمعه ، وفى الإيمان بما يميل إليه عقله ويقتنع به ، فلا يجوز لأحد أن يصادر حريته فى هذا المجال ، وإلا أعطى لنفسه حقاً لم يشأ الله أن يستعمله مع خلقه ، وتصدى لطبيعة خلقها الله فى الإنسان ، وكبت غريزة لا تستقيم حياة الإنســـان إلا بها ، ولا تصلح النظم الاجتماعية إلا بظهورها ، ولا تسير حياة الأمم فى مجراها الطبيعى إلا إذا تمتع أفرادها بهذه الحرية . وحق طبيعى للإنسان :

أن يحصل على حقه مما سخره الله له ، فلا يجوز لأحد أن يحرمه من هذا الحق ، فليس لأمة أن تستأثر بالموارد الطبيعية دون غيرها ، ولا لشعب الاستحواذ على ما يرفع مستوى معيشته ، بينما يحتاج غيره من الشعوب إلى ما تسد به رمقها ، ولا لجنس أن يملأ بطون أفراده بأطايب الأطعمة ولذائذ الأشربة ، بينما شعوب أخرى يقتلها الجوع بعد أن تمر بطريق طويل تذوق فيها ألواناً من الحرمان ، وصنوفاً من آلام تتعرض لها أبدانها العارية وبطونها الخاوية ، وأجسادها التى أصبحت مستعمرة للأمراض ، وموطناً لكل أنواع العلل والأسقام .

أكد الإسلام على هذين الأمرين : الحرية والمساواة فى حقوق الانتفاع بما سخره الله للإنسان ، لأنهما أساس العدل فى المجتمع الإنسانى ، ومصدر تقرير عزة الإنسان وكرامته ، وسياج المحافظة على إنسانيـــة الإنسان ، فلا تُهدَر ، ولا تُهان ، ولا يلحقها ما يشينها ، أو يحط من كرامتها التى بوأها الله إياها . فإذا تقرر هذا لدى ضمير المجتمعات الإنسانية ، وحافظة عليه الحكومات ، واعترف به دعاة المذاهب والاتجاهات الفكرية ، وآمن به كل فرد إيماناً راسخاً ، بحيث يكون مستعداً للدفاع عنه بكل ما أوتى من وسائل ، وما تيسر له من سبل ، لاختفت ظواهر الظلم ومعالم الاستغلال من المجتمعات البشرية ، فلا ينال أحد أكثر مما يستحق ، ولا يُحرَم إنسان من حق الحياة على نحو يحفظ عليه إنسانيته وكرامته ، ويومئذ يشعر المرء بالأمن والأمان ، والاطمئنان

والاستقرار ، وذلك ما تهدف التعاليم الإسلامية إلى تحقيقه للإنسان فى الدنيا ، فضلاً عن مجازاته فى الآخرة على حسن عمله فى دنياه :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

[آل عمران : ١٤٨] .

إصلاح وسعادة :

رفع الإسلام مكانة الإنسان ، فاعترف بجميع العناصر التى يتكون منها ، سواء كانت مادية أو روحية ، إذ لم يفرض عليه من العبادات ما يرفع به نفسه وروحه و يهمل بدنه وجسمه كما فى بعض الأديان ، و لم يتركه مطلق العنان فى مجال إشباع الغرائز حتى لا يدمر نفسه ، ويُصَدِّع بنيان مجتمعه ، بل اعترف بروحه وجسده ، ففرض عليه من العبادات ما يصفى هذه الروح من الشوائب ، وينقيها من الآثام ، ويطهرها من الرجس ، ويبعدها عن موطن الموبقات ، ويحول بينها وبين الانحدار إلى ما يعكر صفاءها ، ويطمس شفافيتها ، ويميت متطلبات تكوينه الجسمى ويقضى على بهائها ونقائها ، وفى الوقت نفسه لم يفرض عليه أن يكبت غرائز بدنه ، فلم يُحَرِّم عليه طيباً ، و لم يمنعه من إشباع غرائزه ، سواء كانت من الطعام والشراب ، أو كانت تتعلق بمباشرة الاتصال النوعى ، ما دام ذلك فى الإطار العام الذى رسمه لحياة الفرد والجماعات ، يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف : ٣٢]

ويقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة : ٨٧]

ويقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم : ٢١]

تعتبر هذه النظرة إلى الإنسان سموًّا به ، ورفعاً لشأنه ، وبياناً بأن الله الذى خلقه فى أحسن صورة ، فرض عليه من الأحكام ما فيه صلاحه جسمياً ونفسياً ، وما يعود عليه بالسعادة بدنياً وروحياً ، فلم يعذبه بحرمان جسدى ، و لم يثقل كاهله بواجبات دينية ، يقول تعالى :

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة : ٦]

ويقول رسوالله ﷺ : " **إن لبدنك عليك حقا ، وان لزورك عليك حقا ، وان لزورك – يعنى : زوارك وضيوفك – عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه** "

اعترف الإسلام بالكيان الإنسانى كله : جسمه وروحه ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، ولهذا لم يغفل جانبا من هذه الجوانب فى خطابه له :

ففى الجانب المادى :

أمره بالسعى فى الأرض ليأكل من طيباتها ، ويستمتع بما فيها ، وما يمكنه أن يستخرجه منها ، كما حثه على النظافة والتجميل ، بشرط الاعتدال فى ذلك كله . كما نهاه عما يضره بدنياً ،

فحرم عليه المسكـــرات بجميـــع أنواعها حتى لا يضر جسمه فيعجز عن القيام بما تفرضه عليه حياته .

وفى الجانب الروحى :

أمره بعبادة الله وحده ، ففرض عليه أنواعاً من الطاعات كـــ : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج والعمرة ، وحثه على الالتزام بما يقربه إلى ربه ، مثل : الذكر ، و الدعاء ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والبر ، والإحسان ، والجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك مما يقرب العبد إلى ربه ، ويبعده عن وساوس الشيطان وهواجس الأشرار .

وفى مجال العقل :

أمره بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات ، كما حثه على التفكير فى مصائر الأمم وسنن الله فى المجتمعات ، فلم يحرم عليه العلم ومعرفة الحكمة ، مهما كان مصدرها ، بل أنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء ، وما ذاك إلا ليدفعه إلى ممارسة شئون الحياة على نحو يلبى كل رغبات عناصر تكوينه .

ولم يهمل جانب إحساسه بجمال ما حوله والتفاعل معه نفسياً وروحياً ، فوجهه إلى النظر والتأمل فى جمال الكون أرضه وسمائه ، ونباته وحيوانه ، لاستكشاف مظاهر الحسن والبهجة فيه ليشبع حاسة الجمال عنده ، فيشعر بعظمة الله فى أعماق نفسه وفى ثنايا وجدانه ، يقول الله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق : ٦]

ويقول :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية : ١٧ – ٢٠]

ويقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٩]

إن خطاب الله للإنسان على هذا النحو يؤكد أن الإسلام ينظر إلى كيان الإنسان كله ، فلم يهمل جانباً لحساب آخر ، وفى ذلك اعتراف بكل عنصر فيه ، وتقدير لمهمته التى خُلِق من أجلها ، فسبحان من خلق فأحسن الخلق ، وصوَّر فأبدع التصوير ، يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨]

أخوة وتعـاون :

لم تكن الدعوة إلى تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام قاصرة على نصوص تُتْلَى ، أو إعلان يذاع على الناس ، بقصد الدعاية للاستحواذ على عقول الجماهير ، واكتساب تأييد دولى – كما هو الحال على الساحة الدولية ، حيث يرفع الغرب والشرق هذا الشعار ، وتغنى أبواق دعاية كلٍّ على وتره ، دون التزام أحد منهم بالتطبيق العملى فى ميدان المعاملات الدولية – بل كان مبدأً يجب الإيمان به ، وقانونا سماوياً يجب الإذعان والخضوع له ، وشرعاً ربانياً يتحتم على كل مسلم تنفيذه ، وإلا حقت عليه كلمة العذاب ، فباء بالخسران المبين ، والعقاب الأليم .

التزم المسلمون بما جاء فى القرآن الكريم فطبقوه فى حياتهم ، حيث اتخذوه نبراساً يهتدون به فى نظرتهم إلى الوجود ، وفهمهم لحركات الكون ، وتقييمهم للحياة الإنسانية ، فكان سلوكهم الاجتماعى قائماً على أساس العقيدة التى غرست فيهم كل أنواع الفضيلة ، فتكوَّن لديهم الشعور بالعطف على بعضهم البعض ، وتأصل فيهم احترام الجانب الآدمى فى الإنسان ، فلا يصدر من

أحد ما يؤذى أخاه أو يؤلمه ، ولا يباشر عملاً يترتب عليه امتهان كرامة الآخرين أو التقليل من إنسانيتهم ، أو الحجر على حريتهم ، أو الحيلولة بينهم وبين ممارسة ما فطرهم الله عليه فى حدود التشريع الإلهى ، وبذلك صاروا إخوة متحابين متعاطفين ، يشعر كلٌّ بما يشعر به الآخر ، سواء كان ألماً أو انبساطاً ، حزناً أو ابتهاجاً ، كدراً أو سعادة ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات : ١٠] . ومن مقتضيات الأخوة : العطف ، والرحمة ، ومد يد المساعدة والعون ، والمشاركة فى الأحزان والأفراح ، وعدم الاعتداء والظلم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا سلب ، ولا نهب ، بل تعاون ، وتعاطف ، وتراحم ، يقول رسول الله ﷺ : " **مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** " ، ويقول : " **المسلم أخ المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته يوم القيامة ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة .** "

ألزم الإسلام المسلم بأعمال تجاه أخيه ، من شأنها أن تقوى الروابط بين أفراد المجتمع ، وتعمق الشعور بحقوق الإنسان ، وتؤكد على آدميته ، فلا تدع سبيلاً لظهور ما يتعارض مع كرامة الإنسان فى الحياة الاجتماعية ، يقول رسول الله ﷺ : " **حق المسلم على المسلم ست** ، قيل : ماهن يارسول الله ؟ قال : **إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه** " . لأن هذه الوصايا من أهم الدعائم التى يقوم عليها مجتمع متماسك ، يحس فيه الأخ بأخيه ، ويحرص على أن يؤدى ما عليه إزاءه ، ولا يفرط أبداً فى قضاء حاجة أخيه ، أو تلبية دعوته ، إن أصابه مكروه ، أو ألم به ضرر .

سادت روح الأخوة فى المجتمع الإسلامى ، ورسخت فى أعماق ضمائر المسلمين ، وذلك بالالتزام بما أمرهم الله ﷻ فى هذا المجال ، وتذكير بعضهم البعض بما وصاهم به الرسول ﷺ بألا يحقر مسلم أخاه ، ولا ينظر إليه نظرة استعلاء واستكبار ، اعتماداً على نسب أو جاه . وقد تناقل

المسلمون مرويات تؤكد هذا المعنى ، رددوها فى مدارسهم ومجالسهم ، ولقنوها لأبنائهم حتى يظلوا دائما على ذكر بما يجب عليهم نحو إخوانهم ، ومن هذه المرويات ، ما رواه البخارى أن أبا ذر وبلال الحبشى رضى الله عنهما – وكلاهما من السابقين الأولين – تغاضبا وتسابا ، وفى ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء ..... فشكا بلال إلى رسول الله ﷺ فقال النبى لأبى ذر : " **أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية** " ، وعن أبى ذر أن النبى ﷺ قال : " **انظر ..... فإنك لست بخير من أحمر وأسود ، إلا أن تفضله بالتقوى** " . كما جاء فى كتب التاريخ أن ابن عمرو بن العاص ضرب ابن أحد المصريين وافتخر عليه بأنه أفضل منه وأكرم ، لأنه ابن الوالى ، فذهب أبوه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة وشكا له ، فاستدعى عمرَو بنَ العاص وابنه ، فلما مثلا بين يدى عمر ، قال لابن المصرى : " اضرب ابن الأكرمين " . ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال قولته المشهورة : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا** " .

فهل يوجد فى التاريخ مشهد أوضح من هذا فى تقرير حقوق الإنسان ؟؟؟

إنه مشهد عملى بعيد عن الدعايات المضللة ، والشعارات الكاذبة ، كتلك التى ترددها أبواق الإعلام صباح مساء على المسرح الدولى ، بينما الواقع يصرخ مستغيثاً ، فلا يُسْمَع له صوت من كثرة الضجيج الإعلامى الكاذب عن حقوق الإنسان وكرامته .

ومبدأ إسلامى عبر عنه عمر بن الخطاب بقولته التى أصبحت وثيقة من الوثائق الإسلامية التى حافظ عليها المسلمون عبر مسيرة التاريخ إلى يومنا هذا ، ولا زالت منارة المسلمين فى تحديد علاقتهم وسلوكهم مع جميع الناس فى كل بقاع الأرض .

تطبيق لاشعارات :

اتخذت وسائل الإعلام فى كل من الشرق والغرب قضية حقوق الإنسان مادة لكسب تأييد المجتمع الدولى ، فكل دولة تتهم الأخرى بأنها أهدرت حقوق الإنسان فجعلته آلة فى عجلة الحياة ، لاحق له سوى الأكل والشرب بالقدر الذى يحفظ عليه حياته . فلا حرية له فى التعبير عن أفكاره وفى الإعراب عن آماله وطموحاته ، بل لا يستطيع أن يصرخ من الآلام التى يحملها بين طياته ،

ولا يشكو مَنْ ظلمه فسلبه حريته ، وإلا ضُرِب بالقنابل والصواريخ ، وحوصر حتى يموت من الجوع ، أو تفترسه الأمراض والجراح ، حتى فى البلاد الغربية التى ترفع علم الحرية وتدعى أنها حامية حماها يعتمد نظامها الرأسمالى على الاستغلال والاحتكار، فأصحاب رءوس الأموال يستغلون جهود وطاقات الناس فى سبيل الحصول على أكبر ربح ممكن ، فتتكدس الثروة فى أيدى عدد قليل من الناس ، يستمتعون بها ، ويستخدمونها سلاحاً للسيطرة على مقاليد الحكم ، وإخضاع الجماهير . كما تساعدهم على التحكم فى سياسة الدول والشعوب فيخضعونها لرأيهم ، ويجبرونها على السير فى فلكهم ، وبذلك تصير أعنة السياسة الدولية فى أيديهم ، يسيرونها إلى الاتجاه الذى يدر عليهم ربحاً أكثر فيزداد ثراؤهم يوما بعد يوم ، بينما الشعوب الأخرى تئن من كثرة ما يلم بها من الأزمات الاقتصادية ، وتصرخ طالبة مد يد المساعدة ، فلا يجيبها أحد إلا بمقدار ما يعود عليه بنفع أكبر وعائد أوفر .

وحقيقة الأمر أن كلا من الشرق والغرب قد أهدر حقوق الإنسان وأضاع كرامته ، والخلاف بينهما فى الوسائل فقط :

فالدول ذات النظم الاشتراكية اتخذت السيطرة على وسائل الإنتاج فى الدولة أسلوباً لإخضاع الإنسان للحاكم ، وإجباره على الاستسلام لقراراته وتوجهاته بالإضافة إلى استعمال القوة لإرهاب المعارضين ، وعقاب من يتجرأ فيرفع صوته بالشكوى ، أو يئن بصوت عال ، كما تستعمل أيضاً فى فرض هذه النظم على شعوب أخرى فى أرجاء متعددة فوق سطح الكرة الأرضية .

والنظام الرأسمالى وإن كان قد أعطى الفرد شيئاً من الحرية فى مجال التعبير عن الآراء والاتجاهات ، إلا أن معالمه تؤدى إلى عدم إمكانية هذه الحرية فى الواقع العملى ؛ إذ أن مصالح الإنسان ووسائل حصوله على لقمة العيش متداخلة مع النسيج الرأسمالى ، فلا يستطيع أن يتخلص منها ، ولا يقدر على التعبير عن رأيه بحرية كاملة ، وإلا عصفت به مراكز القوى فى المؤسسات الاقتصادية التى تسيطر على مصادر رزقه ، فلا يستطيع الوصول إلى حقه إلا بعد أن تنهك قواه ، وقد تنهار عزيمته قبل الوصول إلى هذا الحق .

وعليه فإن حقوق الإنسان فى كلا النظامين - الاشتراكى والرأسمالى - غير مكفولة إلا لمن يملك القوة ، ويتمتع بالسلطان ، سواء كان وصوله إلى ذلك الوضع عن طريق السيطرة على مقاليد

الحكم ، أو بواسطة نفوذ رأس المال وسيطرته على مصادر رزق الناس ومقدرات حياتهم ، ففى كل مجتمع طبقة مميزة على بقية الطبقات ، تتمتع بخيرات المجتمع ، ولا تُسْأل عما تقترفه فى سبيل ذلك من آثام فى حق الآخرين ، وبذلك ضاعت حقوق الإنسان ، فلا تُسْمع إلا فى وسائل الإعلام وأبواق الدعاية ، أما فى الواقع فلا تجد لها أثراً ، ولا ترى لها مثلاً .

لم تهتد أنظمة الإنسان إلى الأسلوب الصحيح فى تقرير حقوق الإنسان نظرياً وعملياً ، لأنها من صنع البشر، فليس لها من الجلال والقدسية على نفوس الناس مثل ما للأوامر الإلهية التى لها قدرة التأثير على نفوس الناس ، مما يجعلهم ينفذون ما تدعو إليه دون أدنى معارضة ، ويخضعون لها دون تردد ، أو تمرد . كذلك لم تنجح الأديان فى تحويل النصوص التى تتعلق بحقوق الإنسان فى كتبها المقدسة إلى واقع عملى مثل ما حدث فى المجتمع الإسلامى ، فقد سوى الإسلام بين الناس كلهم فى الحقوق والواجبات ونفذ ذلك عمليا بين المسلمين ، يشهد بذلك :

ما روى من أن أسامة بن زيد حين شفع فى المرأة المخزومية التى وجب عليها حـد السرقة ، قال له رسول الله ﷺ : " **أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها** " .

وقال أبو بكر ﷺ فى أول خطبة له : " ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه "

وكتب عمر ﷺ إلى عماله يقول : " اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبهم لبعيدهم ، وبعيدهم لقريبهم ، إياكم والرشا ، والحكم بالهوى . "

بل إن غير المسلمين عاشوا فى المجتمع الإسلامى مكرمين ، لم يسلبهم أحد حقهم ، ولم يعتد على إنسانيتهم حاكم أو محكوم ، بل كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكان هذا أوضح مثل على تقرير حقوق الإنسان عملياً فى المجتمع الإسلامى ، فلم يكن امتلاك المال والجاه وسيلة لظلم الآخرين ، وسلبهم حقوقهم ، كما هو الحال فى النظام الرأسمالى ، ولم تكن القوة والسلطان طريقاً للبطش بالآخرين وإذلالهم وانتقاص حريتهم وكرامتهم ، كما كان — ولا زال — الحال فى النظام الاشتراكى ، بل لكل حقه حتى ولو كان فى يد الخليفة ، وعلى كل واجب ينبغى عليه القيام

به حتى ولو كان الأمير نفسه ، وبذلك شعرت النفوس باستقلالها وعزها وسيادها ، وعم العدل كل الطوائف ، فشعرت بالأمن والأمان والطمأنينة والاستقرار .

فلا تتحقق سعادة الشعوب برفع الشعارات ، وقوة صدى الدعايات ، ولا تنال طمأنينتها وأمنها بالوعود الكاذبة ، والأمانى الخادعة ، ولا تستقر حياها على أساس تصورات وهمية ، أو تخيلات ذهنية ، وإنما تنال حقها فى الوجود ، وتشعر بذاتيتها وكينونتها فى الحياة ، وتحس ببقائها واستمرارها كلما زاد إحساس أفرادها بالعزة والكرامة ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع بأواصر القربى بينهم ووشائج الصلة التى تربطهم ، فلا يظلمون أحداً لأنه جزء منهم ، ولا يقسون على أحد لأن إيذاءه يؤلمهم ، ولا يستغلون إنساناً مهما كان مركزه الاجتماعى وموطنه الجغرافى ، ولا يصمُّون آذانهم عن سماع آهات المعذبين وصرخات المحرومين ، فيقدمون لهم المساعدة ، ولو اقتضى الأمر شطر كسرة الخبز التى بأيديهم ، واقتسام الثوب الذى يقيهم برد الشتاء وحرارة الصيف .

ولن تشيع هذه الروح بين بنى الإنسان ، وتسود فى المجتمع البشرى إلا إذا اختفت الأنانية ، وقُضِى على التعصب القبلى والعرقى ، وطُهِرَت نوازع تعالى الإنسان على أخيه الإنسان ، وتوارت عصبية التكتلات ، ونزعة الانتماءات المذهبية المدمرة ، فشعر الناس جميعاً بوحدة الرباط الذى يحتم التعاون والتماسك أمام عواصف الدهر وتقلبات الأزمان .

ولا يوجد فى ساحة الفكر البشرى ما يوقظ فى الإنسان هذا الجانب ، أو يدعو إلى إزالة الفوارق بين المجتمع ، ويعمل على إزالة الحواجز بين طبقات المجتمع الواحد ، بحيث يشعر الناس بأن وضعهم فى المجتمع لا يتحدد على أساس كثرة المال ، أو قوة العصبية ، أو اتساع النفوذ والسلطان :

- إذ تميل التكتلات الفكرية والمذهبية إلى احتقار من لا يؤمن بأفكارهم ويسير فى فلكهم ، ويسعى لنشر مبادئهم ، مما يدفعهم إلى الظلم والبطش بمن يعارضهم أو يناوئهم .
- ويشعر أصحاب المال باستعلائهم على من حُرِموا منه ، فينظرون إليهم من عَلُ ، ويتعاملون معهم على أساس أنهم أقل درجة ، أو درجات ، وأحط

شأناً فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يتساووا معهم فى الحقوق ، وليس لهم الحق فى معاملة متكافئة فى السلوك الاجتماعى ، لأن درجتهم أقل ، ومركزهم الاجتماعى أدنى من درجات ومراكز من رفعتهم الثروة ، وانطلق بهم النفوذ المالى إلى أعلى .

- ويعتقد فريق آخر بالتمايز بين الناس على أساس اللون والدم ، فيتعالى الأبيض على الأسود ، ويفتخر من له عصبية قبلية تؤازره ، وتشد عضده على من لا عصبة له ، ولا سند من هذا النوع يسنده ، فيعيش بين القوم مهاناً ذليلاً ، ويمضى بينهم مطأطأ الرأس مكسور الجناح ، فلا ينال من الثمار إلا سواقطها ، ولا يحصل على شيئ من الموائد إلا فتاتها ، ولا يتمتع باستمتاع بما سخره الله للإنسان إلا بما يجود به هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم مميزين على أساس اللون أو العصبية ، وليس له من الحرية إلا ما يسمح به أولئك الذين ملكوا السلطة والسلطان عن طريق الادعاء الكاذب بالفضل ، وتحريف سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا وهى أن الناس سواسية ، لا فضل لأحد على آخر إلا بالعمل والإنتاج ، لا بالنسب والألوان ، ولا بالدم والأشكال .

وهكذا أصبحت المجتمعات البشرية مكبلة بأوهام المذاهب الفكرية . وضلالات المادية العمياء ، وأسيرة التقاليد البالية ، والأعراف المجحفة ، والمسلمات الاجتماعية التى تسلب الإنسان حقه فى الحياة ، وتحرمه من أبسط الحقوق الإنسانية ، وتُحَرِّم عليه الاستمتاع بما سخره الله له .ولا يُعْقَل أن يتحول هذا الوضع بكلمات تلقى على مسامع الناس ، أو بمبادئ حزبية يتجمع المظلومون حولها ، ويجاهد الأحرار فى سبيل تحقيقها ؛ لأن تحول المجتمعات عن :

- التقاليد الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ .
- والأعراف الثابتة فى الأذهان والعقول ثبوت الجبال الرواسى .
- والمسلمات المحصنة داخل الكثرة المؤمنة بها .

ليس بالأمر الهين ؛ فلا تستطيع مذاهب بشرية تغييرها ، ولا يمكن لسلطة مادية اقتلاعها مهما أوتيت من قوة وعزيمة ، بل لا بد من عقيدة تسيطر على أرواح الناس ، وتهيمن على عواطفهم ، وتقودهم إلى الطريق المستقيم ، حيث تختفى فيه هذه المظاهر اللاإنسانية ، وتتوارى إلى الأبد الممارسات التى تحط من كرامة الإنسان ، وتجعل تقييمه تابعاً لموازين مادية ، ومقاييس اعتبارية خارجة عن ذاته ، وليست كل العقائد قادرة على هذا العمل ، فهناك من العقائد ما اشتملت مبادئها على التميز العنصرى ، ومنها ما تعصبت لمبادئها فاحتقرت من لا يؤمن بها ، بل طاردته وسلبته حق الحياة .

وعليه فليس فى تاريخ الفكر البشرى ، ولا فى ساحة العقائد الدينية ما يصلح لمواجهة هذه الظواهر اللاإنسانية فى المجتمعات والقضاء عليها سوى **الإســـلام** .

تصحيح الانحرافات :

لم تنجح المذاهب الفكرية فى تطبيق ما اشتملت عليه مبادئها من دعوة إلى حقوق الإنسان فى المجتمعات التى أصبحت لها السيادة عليها فى مجال التوجيه والتربية أو فى ساحة السلطان والحكم ؛ لأن الداعين إلى تطبيق هذه المبادئ فى المجتمع سلوكياً ، لم يستطيعوا التخلص من أنانيتهم ، ولم يتمكنوا من تحرير أنفسهم من الرغبات المادية ، فانصاعوا لأهوائهم كلما سنحت الفرصة لهم فى إشباع غرائزهم ، واندفعوا مع تيار حب الاستحواذ على كل ما يقع تحت أيديهم ، تاركين إخوانهم يتضورون جوعاً ، أو يتألمون من وقع السياط على ظهورهم . وأصبح دعاة المذهب — بعد ما مُكّن لمبادئهم فى الأرض — أبواقاً تردد شعارات لا واقع لها ، وتدعو الجماهير إلى الإيمان بمبادئ كانوا هم أول المنكرين لها فى واقعهم العملى .

ولم تكن المجتمعات التى خضعت لأديان بشرية أوفر حظاً من أولئك الذين وقعوا تحت سيطرة المذاهب والاتجاهات الفكرية التى لم تصطبغ بصبغة دينية ، ذلك أن رهبان الأديان البشرية ومشرعوها تخبطوا فى متاهات الأساطير والأوهام ، وغرقوا فى أوحال الصور المختلفة للطقوس الدينية ، التى لم تؤثر فى تقويم سلوك الإنسان ، بقدر ما غرست الخوف فى قلبه ، فأخضعته للرهبان خضوع العبد لسيده . وقد استغل رجال الدين هذه الظاهرة ، فتعالوا على الناس ، وأقنعوهم بأنهم

أقرب إلى الله منهم فهم يَفْضُلونهم ، ولهذا ينبغى عليهم أن يؤثروهم على أنفسهم ، كى ينالوا رضا الله ، وهذه ظاهرة تتنافى مع ما ينبغى أن تقوم عليه مبادئ الدين من عدم تفضيل أحد على آخر بمجرد الانتساب إلى طائفة معينة ، حتى ولو كانت هذه الطائفة تقوم على رعاية بيوت الله .

وعليه فلم يبق صالحاً لحماية حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية ، إلا العقيدة القائمة على أساس الوحى السماوى ، أى إلا الالتجاء لدين سماوى ، لأن مبادئه كاملة ، لأنها من كامل وهو الله ، وتعاليمه صالحة للتطبيق فى المجتمع البشرى ، لأنها ممن يعلم طبيعة الإنسان ، وظروف الحياة المختلفة ، ولا يوجد على الساحة سوى : اليهودية والمسيحية والإسلام . أما اليهودية فقد انحرفت عن الطريق المستقيم فى هذا المجال من يوم أن اعتدى أتباعها على نصوص الوحى فحرفوها ، إذ أشاعوا بين الناس أنهم شعب الله المختار ، فهم يَفْضُلون غيرهم من البشر ، ولذلك أباح الله لهم ما لم يبحه لغيرهم ، فسمح لهم بالاستعلاء على غيرهم ، وأجاز لهم سلب أموالهم ، والاعتداء على حرياتهم ، وفوضهم فى إقامة مملكته فى الأرض ، حيث تكون لها السيطرة على جميع الشعوب ، فتتحكم فى مصائر البشر أجمعين . ولا شك أن هذه الادعاءات كلها تتنافى مع ما ينبغى أن يكون عليه وحى الله ، إذ لا يعقل أن يكون الله متعصباً لفريق من البشر ضد فريق آخر ، لأن الجميع عبيده ، خلقهم من نفس واحدة ، وسواهم على هيئات ليس بينها ما يوحى بتمييز أحد على آخر ، أو تفضيل جنس على آخر ، كذلك لا يتفق هذا التفضيل مع ما شرعه الله للناس ، إذ كيف يطلب من فريق مالا يكلف به فريقاً آخر . إن هذا مناف لعدل الله ، وحاشا لله أن يكون ظالماً فلا يسوى فى الحقوق والواجبات بين عباده ، وتنزه الله عن أن يبيح لأحد من الناس أن يسلب حقوق الآخرين كما يدعى اليهود ذلك لتبرير جرائمهم ضد الشعوب الأخرى .

وأما المسيحية فقد ضلت الطريق أيضاً ، حيث رفعت أفراداً من البشر إلى مرتبة الألوهية ، وفضلت مجموعة من الناس على إخوانهم فى المجتمع ، فالبابا مقدس ومعصوم من الخطأ ، فهو مميز عن غيره من سائر البشر . ورجال الدين يَفْضُلون غيرهم من المسيحيين ، وهذا تختلف نظرة الدين إلى كلٍّ ، وتتفاوت الحقوق والواجبات بتفاوت موقع كلٍّ داخل المجتمع ، ولا شك أن هذا يتنافى مع أدنى مبادئ حقوق الإنسان التى تحتم المساواة بين الجميع ، بحيث لا يكون التفاضل بين الناس إلا على أساس العمل والإنتاج .

صحح الإسلام هذه الانحرافات الدينية ، فأعلن أن الناس جميعا - بما فيهم علماء الدين - سواسية ، فلا فضل لأحد على آخر ، ولا تمييز لعرق دون عرق إلا بالمجهود الذاتى ، لا بالانتساب إلى قبيلة معينة ، ولا بالانخراط فى سلك حرفة خاصة ، ولا بالانتماء إلى جنس معين ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ويقول رسول الله ﷺ : " **كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** " ، أى بالعمل الذى يبذله الإنسان ، لا بدمه وعرقه ونسبه ، أو بحرفته وهيئته الاجتماعية ، وهذا هو الأساس فى تقرير حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية .

وحـدة الشـعـوب :

قرر الإسلام حقوق الإنسان ، فأعلن أن المؤمنين إخوة ، وذلك لينمى مشاعر القربى والأخوة بينهم ، فيقضى بذلك على النعرات الطائفية التى تميز بين الناس على أساس الانتماء القبلى ، أو الانتساب إلى أصول متعددة ، يقوم التمايز بينهم على أساسها يقول الله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فعقيدة التوحيد فى الإسلام تقود المجتمع إلى حيث يشعر أفراده بالوحدة ، فلا يتفرقون طوائف متباينة ، بل يحسون بالرباط الوثيق الذى يربطهم ، ويدركون أنهم مهما فرقتهم أقاليم الأرض ، وأوضاع الواقع المادى ، فإنهم يعودون إلى سلالة واحدة ، فهم خلقوا من مادة واحدة : هى الطين ، وسيعودون إليها ، ويبعثون دون تفرقة بينهم على أى من الأسس التى يعتبرها البشر مميزات بين الطوائف المتعددة ، بل سوف لا يسألون عن هذا ، وإنما عن أعمالهم ، يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون : ١٠١-١٠٣]

فإذا أدرك الإنسان وحدة المصير ، وعدم الاعتبار بظواهر العصبية الدنيوية فى الآخرة ، فإنه سوف يقتنع داخلياً بأن هذه الاعتبارات المادية التى ترفع قدر إنسان على آخر فى هذه الحياة الدنيا ، لا وزن لها ولا ثقل فى مجال النظرة السليمة إلى الإنسان ، سواء كان ذلك فى جانب تقييمه ، أو فى كيفية السلوك معه ، والالتزام بحقه فى جميع مجالات الحياة . فالمسلم – وهو أكثر الناس إدراكاً لهذا المعنى – يجد نفسه أقرب نسباً إلى إخوانه فى العقيدة ، لأنه يشعر بوجوده داخل إطار إيمانى ، جمعهم تحت مظلة واحدة ، فأسسوا بإرادتهم المختارة لهذا الدين عقد أخوة خاصة ، ينتظمون به فى الدنيا فى سلك واحد ، وينحازون به يوم الدين إلى مقام واحد ، يوم تصدع الخلائق بين هالك وفائز .

فَهُمْ بهذا الشعور قد خرجوا من إطار وحدة الطبيعة التى لا تتجاوز الشعور الفطرى الضيق ، والمحدود بوحدة الإقليم ، أو العرق ، أو اللون . وتجاوزوا وحدة الرأى التى لا تدوم إلا باتفاق الأهواء ، وهى غالباً ما تكون متقلبة ، ودخلوا فى وحدة أوسع من وحدة الرباط الفطرى ، وأكثر إيجابية من التآلف الفكرى ، لأن هذه الوحدات الضيقة لا تقوم إلا فى حدود فطرية ضيقة منعزلة لا مدخل فيها لسائر الناس ، ولا يتسع مجالها الفكرى لكل أجناس البشر ، فقاعدتها مضطربة اضطراب أهواء البشر . أما الإسلام فصدره واسع لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، وساحته نستوعب كل مستجيب له ، مهما كان أصله أو ماضيه ، فهو يدعو للنظر إلى سائر الناس نظرة عطف وتَقَبُّل ، تُبْسَط إليهم اليد بالدعوة الحسنة ، فكلهم مدعوون إلى الانضواء تحت لوائه ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا بين غنى وفقير ، ولا تمييز بين الأنساب ، ولا بين الألوان ، فالكل فى ظل الإسلام يُكَوِّن وحدة متماسكة لا تفضيل بين أجزائها .

ويحمل الإسلام فى أوامره وأحكامه خصائص الوحدة بين المؤمنين به ، فإذا كانت الجماعة المؤمنة تفيد من عقيدتها معنى الإخاء ، فإن الشريعة تؤكد ذلك المعنى بطبيعتها العامة ، ثم بمبادئها

وأحكامها الفرعية ، فكَوْن الشريعة الإسلامية صادرة عن الله يكسبها سلطاناً على نفوس المؤمنين ، فتتوحد اتجاهاتهم ، وتنسجم حياتهم فى نغمات متناسقة ، لأنها لو كانت من وضع البشر ، لعبرت عن اختلاف آرائهم ، وتناقض أهوائهم ، ولكانت قابلة للنقد والنقض ، ولم يسلم بها جميع المخاطبين المؤمنين ، فيحدث الانشقاق ، وتتدخل الأهواء والرغبات فى فرضها ، فتضيع حقوق الضعفاء ويستفحل غرور المتكبرين وخيلاؤهم ، ويطفح الكيل بظلم المتجبرين ، وفساد أصحاب الأهواء والسلطان . فمذاهب البشر تحمل فى طياتها التناقض والاختلاف ، ولا تعالج إلا بعض نواحى المجتمع ، وتهمل نواحى على جانب كبير من الأهمية فى حياة الناس ، وغالباً ما تقوم على مجموعة من المتناقضات ، لأنها تلفيق وجمع بين آراء شتى ، واتجاهات متعددة ، فينعكس ذلك كله على حياة المجتمع ، فتتوتر علاقات أفراده ، فتصير قلوبهم شتى ، وعواطفهم متنافرة إلى حد التقاتل والتناحر ، فتتبعثر جهودهم ، وتتعثر مسيرة حياتهم ، فينتكسون ، ويأكل بعضهم بعضا .

أما الشريعة الإسلامية فتدعو المؤمنين إلى ما يقوى وحدتهم ، وتحذرهم مما يبذر بذور القطيعة بينهم أو يكدر العلاقة الأخوية بينهم ، فلا يجوز لهم — طبقاً لتعاليمها — إيذاء شعور الآخرين ، ولا جرح إحساسهم ، حتى تظل وحدة الجماعة المؤمنة متماسكة ، بحيث يحس كل فرد فيها بآلام الآخرين ، فيعمل على تخفيفها ، ويشعر بفرحهم فيشاركهم فيه ، وبذلك يُحْفَظ الود بينهم ، ويُقْضَى على أسباب القطيعة ، وتُدرات الجو الأخوى كما أمر الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات : ١٠ – ١٢] ، ويؤكد هذا المعنى

قول رسول الله ﷺ : " **إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا** ".

أخوة إنسانية :

كان اليهود من أوائل الشعوب التى ابتدعت تمايز الأجناس البشرية ، وعمو طبقاتها فوق بعض ، وذلك بزعمهم أنهم المفضلون عند الله ، أو هم شعب الله المختار ، أما بقية الشعوب فحثالة لا قيمة لها عند الله . كذلك تصور الإغريق أنهم هم المتمدينون ومن عداهم برابرة ومتوحشون . ولم يختلف الحال عند المصريين القدماء ، فقد كانوا يرون أنهم أبناء الشمس ، وشعب الله المعبود .

وانتشرت هذه الفكرة عند الرومان أيضاً ، فأبناء روما هم الفضلاء الأحرار وغيرهم عبيد أرقاء ، كما أن الصينيين اختصوا أنفسهم بالمدنية والحضارة ومن عداهم جهلة بدائيون . ومن المؤسف حقاً أن أرسطو ، ذا العقل الكبير والآراء النيرة قال : " إن البشر جنسان : أحرار وعبيد ، فالأحرار هم الذين يجب أن يحموا العالم ، أما العبيد فهم آلات صماء فى أيدى الأحرار " . ولعل دعاة التمييز العنصرى فيما مضى من القـــرون — وفى عصرنا هذا – استندوا على هذه الفكرة الزائفة من أفكار أرسطو ، واتخذوها أساساً لعدوانهم على الطبقات التى كانوا يعدونها طبقات سفلى ، فسلبوهم حقوقهم ، و عاملوهم معاملة سيئة ، لأنهم أدنى منهم وأحط شأناً .

أما الإسلام فلم تقتصر وصيته للمسلمين بحسن المعاملة وحفظ حقوق الآخرين على إخوانهم فى العقيدة ، بل أمرهم أيضاً أن يحسنوا معاملة المخالفين لهم فى العقيدة ، ما داموا يرعون حرمات الإسلام ، ولا يأتون عملاً يترتب عليه إيذاء المسلمين ، أو تهديد أمنهم ، يقول الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة : ٨]

وقد سلك الإسلام فى إقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين منهجاً يستميل العاطفة ، ويؤثر تأثيراً كبيراً على مشاعر الإنسان فى مجال التقريب بين أفراد البشر ؛ ذلك أنه بَيَّنَ أن أصل الإنسان

واحد ، فهم مشتركون فى مبدأ الخلق ومادته التى تَفَرَّع عنها جميع الآدميين ، فهم وإن اختلفوا فى الألوان والأشكال ، وتباينوا فى الهيئات والملامح ، فإنهم منحدرون من أب واحد وأم واحدة ، مما يحتم عليهم أن ينهجوا فى سلوكهم مع بعضهم الأسلوب الذى ينبغى أن يسود بين الإخوة ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء : ١] ، فإن هذه الآية تذكرة للإنسان بوحدة أصل البشرية جمعاء ، ودعوة إلى العمل على ما يقوى الرابطة والتعاون والتكاتف بين جميع أفراد البشرية فى كل أنحاء الكرة الأرضية باعتبارهم جميعا أقارب ذوى رحم واحدة .

وعى المسلمون هذا الدرس على أحسن ما يكون الوعى والإدراك ، فاتسمت معاملتهم مع أهل العقائد الأخرى بالتسامح ، إذ أعطوهم الحرية الكاملة فى ممارسة عبادتهم وتأديـــة طقوسهم ، فلم يُضَيِّقوا عليهم فى معابدهم ، ولم يؤذوا مشاعرهم الدينية . كذلك منحوهم حقوق المواطـــن كاملة فى المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات ، فسووا بينهم وبين المسلمين فى مجال العمل حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة فى الدولة الإسلامية ، وهيئوا لهم فرص النجاح فى التعليم والتجارة والزراعة وغيرها من مجالات النشاط فى المجتمع . ولم تختلف معاملة المسلمين مع المجتمعات غير الإسلامية عن هذا الخط من التسامح وحسن الجوار ، والتعاون على الخير لجميع أفراد البشرية ، لأن الإسلام أباح لأولى الأمر أن يقيموا علاقات سياسية مع الدول الأخرى ، رغم الاختلاف فى الدين ، وأن يكون بينهم تبادل تجارى ، بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثال فى عـــدم التعصب ضد المخالفين لهم فى العقيدة ، وذلك عندما احتضنوا الفلسفة اليونانية فدرسوها وناقشوها ، فأقاموا بذلك الجسور مع الفكر البشرى كله على اختلاف اتجاهاته ، وتباين أشكاله ، وتنوع قنواته ، وتغاير ألوانه ، مما يدل على أنهم يؤمنون بوحدة الإنسانية ، فعملوا على إسعادها ، وتجنب آلامها .

لا عنصرية :

لم تتخلص البشرية من نزعة التفاضل بين الناس ، رغم تقدمها الحضارى ، وتفوقها التكنولوجى ، فلا زالت نزعة التفرقة بين الأبيض والأسود تتحكم فى سلوك كثير من المنتسبين للشعوب " المتحضرة " على الرغم من التناقض الواضح بين سلوكهم مع السود سلوكاً همجياً ، وادعائهم بأنهم " متحضرون " ، فالحضارة ليست ادعاء ، إنما هى ممارسة وشعور تجاه الآخرين . وتقرير مبادئ حقوق الإنسان ليس قراراً يوافق عليه فى مؤسسة دولية ، وإنما إحساس يدفع الإنسان إلى العطف على أخيه الإنسان ، ومساعدته ، والأخذ بيده إلى عالم يشعر فيه بالأخوة ، ويلمس فيه تحقيق التكافل والمساواة بين الناس فى مجال التطبيق ، لا فى إطار النظريات فقط .

كان لتأكيد الإسلام على وحدة أصل الجنس البشرى أثر كبير فى غرس مبدأ المساواة بين الناس فى نفوس المسلمين ، فاختلطت مشاعرهم بهذا المعنى ، وامتزجت أفكارهم به ، فظهرت معالم المساواة فى سلوكهم ، ووضحت صورتها فى نظرتهم إلى بعضهم ، ، إذ جاء فى القرآن الكريم ما يذكرهم بها صباح مساء ، وفى الأحاديث النبوية والتاريخ الإسلامى ما يعمق جذورها فى أفئدتهم ، وينشر آثارها فى معاملاتهم ، فبعد أن أعلن القرآن الكريم مبدأ المساواة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقف رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وأعلن فى خطابه الخالد أن : " **.... الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** " .

ولم يقتصر الأمر على إعلان المساواة فى نصوص تقرأ ، وشعارات ترفع ، بل كانت عملاً وتطبيقاً ، غاص فى حياة الناس حتى صار أمراً عادياً ، لا يلفت النظر ، ولا يحتاج إلى تَصنُّع ، أو إبراز لمن يبحث عنه فى السلوك الاجتماعى ، أو يتصيد أمثلته من هنا وهناك ، فقد كان أساس الحياة الاجتماعية ، ومعالم سلوك المسلمين ، طُبِّق فى المساجد حيث كان يلتقى فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه ؛ إذ لم يجد الأبيض غضاضة أو حرجاً فى وقوف الأسود بجانبه . وطُبِّق فى الحج حيث تلتقى العناصر البشرية كلها ،

من بيضاء وملونة على صعيد واحد ، وبثياب واحدة من تمييز بين أبيض وأسود ، أو استعلاء من الأغنياء على الفقراء .

ومن أروع الأمثال فى بيان المساواة بين الناس ما حدث يوم فتح مكة ؛ إذ أمر رسول الله ﷺ بلال الحبشى أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ، ويعلن كلمة الحق . ومعروف أن الكعبة هى أشرف مكان عند المسلمين ، وأطهر بقعة على وجه الأرض ، **فكيف يرتقيها عبد أسود كبلال ؟** بل كيف يطؤها ملون بقدمه ؟ إن مثل هذا لا يتصور فى العصر الحاضر فى بلاد تدعى أنها " متحضرة " ، كيف وقد حدث قبل أكثر من أربعة عشر قرنا . إنه الإسلام الذى لا يفرق بين الناس على أساس اللون ، إنها العقيدة التى يتساوى فى ظلها جميع البشر ، لأنهم من أصل واحد ، إنها الحضارة الحقيقية التى تعلن مساواة الناس ، بعد أن ضاع هذا المعنى بين أديان مُحَرَّفَة ، ومذاهب بشرية منحرفة .

لقد كان صعود بلال على سطح الكعبة إعلاناً لكرامة الإنسان ، وبياناً بأنه يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه ، لا لبشرته وبياضه ، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخره عمله ، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده ، ولذلك لم يرض رسول الله ﷺ لأبى ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له : " يا ابن السوداء !!! " ... لم يرض رسول الله ﷺ منه ذلك ، بل قرَّعه وقال له : " **أعيرته بسواد أمه ؟ ... إنك امرؤ فيك جاهلية** " وهذا حد فاصل بين العلم والجهل ، وبين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية .

إن الحضارة التى لا يستعلى فيها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة التى يصنعها الإنسان العاقل الكريم ، وهى التى تُسْعِد الإنسانية الواعية الكريمة . أما الحضارة التى يعلو فيها الأبيض ويُمْتَهَن الأسود ، ويسعد بها ذووا البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هى الحضارة الجاهلية التى ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون ، عمياء ، متكبرة ، جاهلة ، حمقاء . " إنك امرؤ فيك جاهلية " : هذا وصف للحضارة الجاهلية التى تنادى بالتمييز العنصرى ، وهو ما كافحته حضارة الإسلام فى كل ميادين الحياة : فى المسجد ، والمدرسة ، والمحكمة ، والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

أيهما أحق أن يوصف بالحضارة ؟ ؟ أتلك التى يستعلى فيها الإنسان على أخيه الإنسان بسبب اللون والعرق ، فيظلمه ويخزله ويسلبه حقه وحريته فى الحياة ، أم تلك التى تسود فيها المساواة بين الناس جميعا ، ويشيع فيها حب الأخ لأخيه ، وعطفه عليه ، وتواضعه وحنانه ؟

ضرب المسلمون أروع الأمثال فى السلوك الحضارى ، لم تعرفه أمم تدعى أنها " متحضرة " ، بل لم تظهر معالمه حتى الآن فى معاملتها مع الشعوب الأخرى ، فعلى الرغم من ادعائها التحضر ، وتزعمها ما يسمى بالعالم المتحضر ، فلازال إنسان العالم الثالث بالنسبة لها مهضوم الحقوق ، تعامله معاملة لا تليق بإنسانيته ، وما ذاك إلا لأنه من عالم متخلف كما يصنفونه ، ويرمونه بالرجعية والجمود على التقاليد والعادات التى هى فى نظرهم تعتبر من سيئات المجتمع البشرى . ولو قرءوا تاريخ الإسلام - الذى يصفون أتباعه بهذه الأوصاف السالفة الذكر — لعلموا أن المسلمين كانوا المثل الحى للصورة الحضارية ، إذ يعلن سلوكهم عن حقيقة حضارية ، وتنطق معاملتهم بأروع ألحان التقدم والرقى الإنسانى ، حيث يتساوى الجميع فى الحقوق والواجبات دون تفريق على أساس اللون أو العرق ، وتتاح الفرص للجميع دون تمييز بين أبيض وملون ، وتطبق العدالة على جميع الناس دون محاباة لطائفة على حساب أخرى . ومن أراد بياناً عملياً فليقرأ بعضاً مما رواه التاريخ فى هذا الصدد :

لما جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون ، رغب المقوقس فى المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً ، فأرسل عمرو بن العاص عشرة نفر ، فيهم عبادة بن الصامت وكان عبادة أسود ، شديد السواد ، طويلاً ، حتى قالوا : إن طولـــه عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذى يتولى الكلام . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت ، فهابه المقوقس لسواده ، وقال لهم : نحوا هذا الأسود عنى وقدموا غيره يكلمنى ، فقال رجال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنا نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمَّرَه الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا

موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنْكَر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة : تَقَدَّم يا أسود وكلمنى برفق فإنى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علىّ ازددت لك هيبة ، فقال عبادة – وقد رأى فزع المقوقس من السواد – : إن فى جيشنا ألف أسود ، وهم أشد سواداً منى .....

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادى فى موسم الحج : ألا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، إمام أهل مكة ، وعالمها وفقيهها . أتدرون كيف كان عطاء هذا ؟ لقد كان أسود ، أعـــور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلاً .... كان إذا جلس فى حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غـــراب أسود ، فى حقل من القطن . ولا يجهل أحد كافور الإخشيدى العبد الأسود الذى لم يمنعه سواده من توليه حكم مصر فى القرن الرابع الهجرى .

أجل ، لقد ظهر فى المجتمع الإسلامى أعلام فى كل ميادين العلم والأدب والسياسة وهم سود البشرة لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء ، ولم يكن سوادهم عقبة فى تبوئهم مراكز الفقهاء ، يؤلفون المراجع الهامة فى الفقه الإسلامى ، كـــ : عثمان بن على الزيلعى ، شارح الكتر فى الفقه الحنفى ، والحافظ جمال الدين أبى محمد بن يوسف الزيلعى ، مؤلف نصب الراية ..... فكلاهما من زيلع فى بلاد الحبشة .

إن التمييز بين الناس على أساس اللون والدم عمل غير إنسانى ، فهو يتنافى مع أبسط حقوق الإنسان ، ويتعارض مع أدنى مظاهر الحضارة ، وهو أسلوب همجى وسلوك بدائى ، لا يشيع إلا فى المجتمعات المتخلفة ولا يعتنقه إلا الجاهلون ، ولا يدافع عنه إلا من سيطرت الأنانية على سلوكهم ، وتغلغل حب الذات فى دمائهم ، وهذه هى مظاهر الشعوب التى لم تعرف مظاهر الحضارة الإنسانية ، حتى وإن ملكت أساليب التكنولوجيا الحديثة ، وسيطرت على مقاليد الأمور فى المجتمع الدولى بآلاتها وأسلحتها ، لأن من ينشد الحضارة فلا بد أن يتخلص من أساليب القرون الوسطى ، ويبتعد عن التعالى والتكبر الذى كان مسيطراً على حياة الشعوب البدائية ، وينظر إلى الإنسان بمنظار العطف والمحبة ، ويتعامل معه على أساس الأخوة والمساواة ، وإلا فإنه يعيش بعقلية بدائية ، ويسلك سلوك من لا يعرف أولى درجات السلم الحضارى .

بين الدعاية والحقيقة :

تستنكر الهيئات الدولية والمؤسسات الإنسانية كل ما يهين الإنسان ، ويهدر كرامته ، فنراها تندد بالأعمال الوحشية التى تقوم بها بعض الدول ضد المواطنين المسالمين ، وتُشَهِّر بكل نظام يتعدى على حقوق الإنسان لرعاياه ، كما يقوم المصلحون بتصوير كل إجراء يسلب الإنسان حريته وكرامته بأنه عمل وحشى ، ويصفون من يتخذه بأنه بربرى بدائى لم يتحضر بعد ، فهو يعيش بعقلية القرون الوسطى ، حيث كان رجال السلطة يصبون جام غضبهم على من يخالفهم ، فيعذبونهم بأقصى أنواع التعذيب ، إذ كانوا يتفننون فى طرق إيلامهم ، وينوعون فى أساليب وحشيتهم مع ضحاياهم .

وعلى الرغم من أصوات الدعاية المدوية فى أرجاء المعمورة بفضل الحضارة الغربية وسموها ، حيث شعر الإنسان فى ظلها بكرامته ، وأحس بإنسانيته ، فلا زال الإنسان فى كثير من مناطق العالم يعامل معاملة غير إنسانية ، فلم يرحمه حاملو تلك " الحضارة " ، بل أذاقوه ألواناً من العذاب ، وصبوا على رأسه صنوفاً من الاضطهاد ، فليس فى قلوبهم مثقال ذرة من رحمة تذكرهم بحقوق الإنسان ، التى يدعون أنهم واضعو ميثاقها ، ولا فى ضميرهم شعاع من نور ، يبصرهم بألم الحرمان ، الذى يعانيه أولئك الذين سلبتهم الحضـــارة الغربية ثرواتهم ، ونهبت ممتلكاتهم ، واستنفدت قواهم ، وسدت أمامهم كل طريق تؤدى إلى تحسين أحوالهم ، ورفع مستوى معيشتهم ، ومن العجب أن هؤلاء " المتحضرون " برعوا فى تغطية جرائمهم ضد العالم الثالث ببيانات دعائية تستنكر ما يفعله إخوانهم بالنيابة عنهم مع هذه الشعوب ، ثم يمدون لهم يد المساعدة من وراء ستار ليزدادوا قوة فى مجال الاستغلال والاستبداد والتحكم ، وعند الاقتضاء يقدمون للمعذبين نوعاً من المساعدة لا تسمن ولا تغنى من جوع . يقدمونها تورية حتى لا تظهر وجوههم الشريرة على حقيقتها ، وتنكشف نواياهم السيئة بأشكالها وأبعادها ، فتزداد ثورة المعذبين ويقوى هديرهم فى وجه المستغلين ، فهى – أى المساعدة – بمثابة تسكين وتخدير ، كى تستمر عملية الاستغلال والاستنزاف .

هذا هو وجه الحضارة الكالح ، الذى يتخفى وراء شعارات كاذبة ، ودعايات مضللة ، فهم يدعون أنهم خلعوا رداء القرون الوسطى الوحشى ، وتخلصوا من أساليب جبابرة القرون المظلمة ،

ولم يكن ذلك سوى قناع يخفى وراءه أخلاقيات فرسان القرون الوسطى ، وقسوة الإنسان البدائى ضد أخيه الإنسان ، لأنهم لا يستطيعون التخلص منها ، ما دام الاتجاه المادى مسيطراً عليهم ، يوجه تحركاتهم ، ويتحكم فى تصرفاتهم .

ولو فكر المصلحون تفكيراً جدياً فيما ينبغى عمله للقضاء على مظاهر الوحشية فى المجتمع الإنسانى ، ومحاربة كل من تسول له نفسه استغلال أخيه واستعباده لاهتدوا إلى الإسلام ؛ فهو أفضل أسلوب لعلاج هذا الانحراف الإنسانى لأنه يُجِدّ من غلواء المادية التى تسيطر على نفس الإنسان فتطمسها ، وعلى روحه فتفسدها . ومتى تحرر الإنسان من هذه السيطرة صار تربة صالحة لغرس مبادئ الأخوة الإنسانية فى نفسه ، وتعويده على عمل كل ما فيه خير له ولأخيه الإنسان ، فإذا كانت الحقوق الانسانية فى المجتمع الغربى نداءات وشعارات فقط ، فإنها فى الإسلام أحكام وتشريعات واجبة التنفيذ ، لا يفرط فيها إلا من وهنت عقيدته ، وضعف إيمانه . ولهذا يحرص كل مسلم على تنفيذها حتى لا يخسر دنياه وآخرته .

وقد غرس الإسلام فى قلوب المسلمين بذوراً ربانية ، فأرهفت حسهم ، ورققت مشاعرهم ، وأيقظت ضمائرهم ، فصاروا رحماء مع إخوانهم يرقون للضعيف ، ويتألمون للحزين ، ويحنون على المسلمين ، ويمدون أيديهم إلى الملهوف ، كما دفعتهم هذه القلوب إلى أن ينفروا من الإيذاء ، ويتجنبوا الجريمة ، فصاروا بذلك رحماء على من حولهم ، يشملونهم بالرعاية والعطف والحنان ، ويدفعون عنهم كل أذى ، فيمسحون أعينهم إذا بكوا ، ويقدمون لهم الطعام إذا اشتكوا من الجوع ، ويلقون عليهم بأرديتهم إذا تألموا من شدة البرد ولسع الصقيع . وتلك هى الحضارة الحقة ، علمها الإسلام للمسلم قبل أكثر من أربعة عشر قرناً ، وفرض عليه الالتزام بها ، فلا يتغنى بها كلاماً خالياً من مضمون التنفيذ — كما يفعل أهل الحضارة المعاصرة مع إخوانهم فى الإنسانية - ، بل ينفذها عقيدة وشرعاً ، ولا يمارسها — أو جزءاً منها — رياءً واتقاءً — كما نراه على الساحة الدولية - ، بل يقوم بها كاملة ، حباً وعطفاً على أخيه الإنسان ، وتنفيذاً لقول الله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد : ١٧] ، فهو يرحم أخاه فلا يؤذيه ، ويرحمه فلا يتركه فريسة العوز والفاقة ، ويرحمه فلا يستغله فى مال أو عمل .

عنى الإسلام بالنزعة الإنسانية ، فوصى المسلم بأن يرعى حرمات أخيه الإنسان حتى وإن خالفه فى العقيدة ، وبذلك نزع من المجتمع الإسلامى الحقد والكراهية للمخالفين فى الدين ، واقتلع من وجدان المسلم العصبية الدينية ، حيث ذكّره بأن الناس جميعاً يرجعون إلى أصل واحد ، فهم أخوة فى الدم و النسب ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء : ١] . إذ مهما تفرق الناس بعد كثرة نسل الإنسان الأول إلى أمم وبلدان وأجناس فإنما هم كتفرق البيت الواحد والأخوة من أب واحد وأم واحدة . وإذا كان الوضع كذلك ، فيجب عليهم أن يتعاونوا تعاون الأشقاء ، وأن يتراحموا فيما بينهم كما يتراحم الأقارب وذو الأرحام ، وأن يتعاطفوا كما يتعاطف أرباب الدم الواحد ، وأن يتلاقوا على الخير تلاقى الإلف مع إلفه ، ويتعارفوا ويتقاربوا تقارب الابن لأمه ، والأخ لأخيه . وطبقاً لهذا الاتجاه الإسلامى الذى يجمع شتات الإنسانية فى عقد واحد ، ويجمع ما تنافر منها على طريق التآلف والتقارب ، انبثق المبدأ الخالد الذى ذكّر الله به الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] . ومن طبيعة التعارف : الشعور بالألفة والتقارب والإحساس بمشاركة الآخرين فى أحزانهم وأفراحهم ، مما يدعو المرء إلى تقديم العون عند الحاجة ، دون تمييز على أساس نسب ، أو لون ، أو عرق ، أو وطن ، بل يتحرر الشعور من كل هذه المسميات ، فلا يبقى مسيطراً عليه إلا الجانب الإنسانى ، وهذا هو ما أعلنه رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، حيث قال : " **يا معشر قريش ! إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب** " .

وعى المسلمون هذا الدرس وعياً كاملاً ، فكان سلوكهم مع غيرهم قائماً على أساس الأخوة الإنسانية ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويعطفون على الفقراء والمساكين ، ويساعدون المحتاجين ، حتى وإن كانوا على غير ملتهم . فقد رأى عمر ﷺ شيخاً كبيراً فى السوق يسأل

الصدقة ، فقال له : ما أنت يا شيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهودياً . فإذا بعمر يقول له : ما أنصفناك يا شيخ ، أخذنا منك الجزية شاباً ، ثم ضيعناك شيخاً . وأخذ بيده إلى بيته فأطعمه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغنى عياله .

هذه هى مظهر الحضارة التى ترعى حقوق الإنسان قولاً وعملاً ، فأين تلك المبادئ التى أعلنها الغرب كميثاق حقوق الإنسان ، ويحتفل بهذا الإعلان كل عام ، بينما تمتهن الدول الكبر فى كل لحظة حقوق الشعوب والأمم ، فتسترف ثرواتهم ، وتصادر حرياتهم ، وتضيق عليهم فى كسب أرزاقهم ، وتعاملهم معاملة الحيوان الأعجم ؟ بل أقل من ذلك ؛ إذ بينما نجد الرجل الأبيض فى المجتمعات الغربية يدلل كلبه ، فيقدم له الأطعمة المحفوظة — والطازجة أيضاً — فى أوعية ملساء نظيفة ، نراه يسلك مع الإنسان فى الدول النامية مسلك حيوان متوحش لا قلب له ولا ضمير . ومن الغريب أن يحدث هذا على مرأى ومسمع من الأمم المتحدة التى ينص ميثاقها على رعاية حقوق الإنسان ، فلا تملك سوى إصدار البيانات الرنانة ، وإطلاق البالونات الهوائية التى لا أثر لها سوى فرقعة الأصوات فى أجهزة الإرسال وبريق " المانشتات " على صفحات الجرائد والمجلات . ثم إن زعيمة " العالم الحر " لم يغير من نزعتها العنصرية تشدقها بحماية الحرية فى كل مكان ، لأنها لا تحمى إلا حرية الذين يدورون فى فلكها ، أما من يتجرأ فيعارضها أو يقف فى سبيل أطماعها تذيقه أصنافاً وألواناً من الاضطهاد ، من ضرب بالطائرات وحصار وتجويع بكل ما عندها من إمكانات . أما الدول الأخرى فتكتفى بالاستنكار الخطابى ، لأنه ليس لديها من المبادئ ما يدفعها إلى تبنى مبدأ المساواة فى المجتمع البشرى والدفاع عنه ، فلم تلمس عقيدة الإسلام شغاف قلوب أبنائها بعد ، تلك العقيدة التى لم تميز شخصاً على آخر بسبب اللون أو العرق ، بل جعلت الكفاءة الذاتية هى التى تقدم صاحبها على غيره ، مع الاحتفاظ لمن ضعفت قدراته بحقه فى الحياة ، فلا اضطهاد ولا استغلال ، إذ الكل سواء فى آدميتهم وإنسانيتهم ومسئوليتهم أمام القانون ، بل إن تعاليم الإسلام غرست فى نفس المسلم وفى وجدانه الإحساس بألم الآخرين فدفعته إلى مد يد المساعدة لمن يحتاج إليها ، دون تمييز بين مسلم وغير مسلم ، يشير إلى ذلك كثرة الخطاب فى القرآن الكريم بألفاظ تشعر الناس بوحدة أصلهم الإنسانى ، مثل : (**ياأيها الناس .... .يابنى آدم .... الخ**) . ولا شك أن هذا يغرس فى نفس المسلم الحب للناس جميعاً ، فلا فرق بين أبيض وأسود ، ولا يميز بين

غنى وفقير . فالحضارة التى لا يستعلى فى ظلها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة الأصلية التى يجب أن تسود فى المجتمع الإنسانى كله ..... وتلك هى حضارة الإسلام لا غير .

obeikan.com